- الكعبة المشرفة والحج في التاريخ القديم -

إن مما جاء في الكعبة المشرفة والحج في التاريخ القديم ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « .. ثم جاء بها – يعني هاجر – إبراهيم وبابنها إسماعيل – وهي ترضعه – حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا فتَبعَتْه أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت: إذَنْ لا يُضيِّعنا ثم رجعت » .

وهذا يبين لنا أن هذه الهجرة كانت بأمر الله تعالى لينشأ إسماعيل عليه السلام بمكة المكرمة وتعمرَ به، وليتم

بناء الكعبة بعد ذلك ، ثم تكون عبادة الحج إليه .

وقد نفَّذ إبراهيم عليه السلام هذا الأمر الإلهي مع مشقته على نفسه ، حيث سيضع زوجته وابنه الوحيد في فلاةٍ من الأرض ليس بها ماء ولا طعام، ولكنه أمر الله تعالى ، وإبراهيم يوقن بأن الله سبحانه لن يضيع إسماعيل وأمه وأن وراء ذلك الأمرِ حكمًا عظيمة، وقد أخرج ابن إسحاق من خبر مجاهد وغيره « أن الله لما بوأ لإبراهيم مكان البيت خرج بإسماعيل وهو طفل صغير وأمِّه ، قال: وحُملوا فيما حُدِّثت على البراق »[1] .

وقد كان إبراهيم عليه السلام قد وقع في هذه الهجرة بين أمرين ضاغطين على إرادته وسلوكه، أولهما تنفيذ أمر الله تعالى ، والآخر مواجهة مشاعر الرحمة والحنين نحو زوجته وابنه ، وما قامت به هاجر من اتباعه ومناشدته عدم تركهما وحدهما في ذلك الوادي القفر .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٠١ .

ولم يكن هناك أي مقارنة بين الضاغطين،لأن إبراهيم عليه السلام لم يخرج بهاجر وابنها من الشام إلا وهو يريد تنفيذ أمر الله عز وجل في كل الظروف التي ستحدث ،ومما يبين كون الأمر الثاني قد شكَّل ضغطا قويا على نفسه أنه لم يلتفت إلى هاجر وهي تناشده حتى لا يكون لمنظرها ومنظر ولدها المحزن أثر على تكييف إرادته .

وفي هذا الحديث بيان لقوة توحيد هاجر رحمها الله ورسوخ يقينها ، حيث قالت لما علمت بأن تلك الهجرة من أمر الله تعالى « إذن لا يضيعنا ».

قال :«فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ

ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، وجعلتْ أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه وهو يتلوَّى ، فانطلقتْ كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدًا ، فهبطتْ من الصفا ، حتى إذا بلغتْ الوادي رفعتْ طرف درعها ثم سَعَتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي[1] ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ فذلك سعيُ الناس بينهما ، قال : فلما أشرفَتْ على

(١) وإنما فعلت ذلك لأن ابنها يغيب عن ناظريها إذا هبطت في الوادي، فهي تخاف عليه من السباع .

المروة سمعَتْ صوتًا فقالت: صَهٍ – تريد نفسها، ثم تسمَّعَتْ أيضًا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه – أو قال بجناحه – حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحوِّضه [أي تجعله حوضا] وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل لو تركتْ زمزم – أو قال : لو لم تغرف من الماء– لكانت زمزم عينا معينا .

قال : فشربَتْ وأرضعَتْ ولدها، فقال لها المَلَك : لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ».

وهكذا تبين لنا من هذا الحديث أصل تشريع السعي بين الصفا والمروة والحكمة من ذلك ، وأن هذا

النسك من باب التأسي بأم إسماعيل عليهما السلام اللَّذين ينتسب إليهما رسول الله ﷺ ، حيث سعَتْ بين الصفا والمروة سبع مرات ، وأسرعتْ في الوادي، فشُرع في الحج السعي بينهما سبع مرات والإسراع بين العلمين الأخضرين اللذين هما إشارة إلى الوادي في وضعه القديم.

ولقد تبين لنا في الحديث علاقة السماء بالأرض، والارتباط الوثيق بين من في السموات ومن في الأرض، وأن المؤمن التقي موصول بربه جل وعلا، وأنه سبحانه مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه بنصره وحمايته وعنايته، وقد كان إبراهيم عليه السلام موقنًا بأن الله تعالى لن يضيع تَرِكتَه التي خلَّفها وراء ظهره .

لقد كان أولياء الله عز وجل يسيرون في الأرض ويعملون بالأسباب التي شرعها سبحانه مع يقينهم بقربه منهم ولطفه بهم ، وهكذا فعلتْ أم إسماعيل حينما كررتْ صعود الصفا والمروة والسعي بينهما وكلها ثقة

بأنها ووليدها موصولان بعناية الله جل وعلا، الأمرَ الذي عبَّرت عنه بقولها « إذنْ لا يضيعنا » .

إن السعي بين الصفا والمروة تذكير بهذه المعاني الجليلة .. من الثقة التامة بالله عز وجل ، وتذكُّر إحاطته بخلقه وأنهم في كَنَفِه جل وعلا وحياطته ، مع بذل الجهد في عمل الأسباب التي خلقها الله سبحانه وجعلها موصلة لغاياتها .

إن الحاج حينما يتذكر هذه المعاني السامية يُضفي على سعيه بين الصفا والمروة قدرًا كبيرًا من الحيوية والطمأنينة ، ويجعلُ من هذا النسك فاعلاً قويًّا في زيادة إيمانه ورسوخ يقينه .

قال ابن عباس في سياق روايته « ثم جاء- يعني إبراهيم- بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحةٍ قريبًا من زمزم فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني ؟

قال: وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا – وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها – قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يناوله الحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يأتي بالحجارة وهما يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١) .

فالله سبحانه أمر إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة وأرشده إلى مكانها بالتحديد .

وقوله في هذا الحديث « رفعا القواعد من البيت » قال الحافظ ابن حجر : في رواية أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن سعيد عن ابن عباس : « القواعد

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥ (٦/ ٣٩٦ – ٣٩٨) .

التي رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك » قال: وفي حديث عثمان وأبي جهم « فبلغ إبراهيم من الأساس أساس آدم ، وجعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الأرض – يعني دوره – ثلاثين ذراعا » وكان ذلك بذراعهم .

قال الحافظ ابن حجر : ومن طريق عطاء قال: «قال آدم يا رب إني لا أسمع أصوات الملائكة، قال: ابن لي بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحفُّ ببيتي الذي في السماء » . قال : وفي حديثه – يعني أبا جهم – أيضًا : «إن الله أوحى إلى إبراهيم أن اتْبَع السكينة، فحلَّقتْ على موضع البيت كأنها سحابة فحفرا يريدان أساس آدم الأول » .

وكان البيت قد تهدم واندثر الأساس أيام الطوفان الذي كان في عهد نوح عليه السلام [1] .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٠٦ .

وقوله « وحتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر » قال الحافظ ابن حجر: يعني المقام، وقال: زاد في حديث عثمان « ونزل عليه الركن والمقام، فكان إبراهيم يقوم على المقام يبني عليه ويرفعه له إسماعيل ، فلما بلغ الموضع الذي فيه الركن وضعه يومئذ موضعه، وأخذ المقام فجعله لاصقا بالبيت، فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاء جبريل فأراه المناسك كلها، ثم قام إبراهيم على المقام فقال : يا أيها الناس أجيبوا ربكم، فوقف إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف ، وحجَّه إسحاق وسارة من بيت المقدس ، ثم رجع إبراهيم إلى الشام فمات بالشام» قال : وروي الفاكهي بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : « قام إبراهيم على الحَجَر فقال: يا أيها الناس كتب عليهم الحج ، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه من آمن ومن

سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك »[1] .

وهذا هو المقصود بقول الله تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] يعني يأتون مشاة وراكبين على الإبل التي تأتي من كل طريق بعيد .

وكان أهمَّ ما أمر الله عز وجل به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يطهرا بيته وما حوله من جميع أنواع الشرك ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج ٢٦] وقال سبحانه ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٠٦ .

وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] فأمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت على اسمه وحده من غير أي شريك ، ثم أمره وابنه إسماعيل عليهما السلام أن يطهرا البيت وما حوله من جميع الأوثان وأن يجعلاه خالصا للموحدين الذين يعبدون الله سبحانه وحده لاشريك له ، ويعمرون بيته بالطواف والعكوف والقيام بالصلاة حوله .

ثم دعا إبراهيم عليه السلام لأهل مكة المكرمة بالأمن والرزق الواسع كما في قول الله عز وجل ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : كان إبراهيم يحْجُرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله : ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أخلق خلقًا لا أرزقهم ؟ أمتعهم

قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [1].

ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « إن إبراهيم لما أُمر بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، قال: ثم تلَّه للجبين [يعني تلَّ إبراهيم إسماعيل ليذبحه كما رأى في المنام] وعلى إسماعيل قميص أبيض ، فقال: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه ﴿ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٨٠ .

صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ [الصافات: ١٠٤– ١٠٥] فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتُنا نتتبَّع هذا الضرب من الكباش، قال: ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب »[(١)].

فهذا الأثر فيه قصتان : الأولى قصة إبراهيم عليه السلام لما بين له جبريل عليه السلام بعض المناسك وعرض له الشيطان ، والثانية قصته لما رأى في المنام أنه يذبح ابنه فعرض له الشيطان .

وسأبدأ بالتعليق على هذه القصة لأنها متقدمة على القصة الأولى كما سيأتي في بناء البيت وقد سبق لنا خبر إبراهيم حين وضع إسماعيل وأمه عليهم السلام قرب الكعبة وما جرى من نبع ماء زمزم ، وقد كان إبراهيم عليه السلام يزورهما بين الحين والآخر، وفي إحدى

(١) مسند أحمد ١/ ٢٩٧ – ٢٩٨ .

obeikandl.com

زياراته ذكر لإسماعيل عليه السلام رؤياه في المنام التي ذكرها الله سبحانه بقوله ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات : ١٠١ – ١١١] وهذا الغلام الحليم الذي بشر الله عز وجل به إبراهيم هو إسماعيل عليهما السلام .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بُشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل

في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق [عليه السلام] وعمْر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة أخرى : «بِكرَه »، فأقحموا ههنا كذبا وبهتانا إسحاق ، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره .

كذلك ذكر من الأدلة قوله تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود: ٧١] فكان وجود يعقوب ابن إسحاق داخلا في البشارة ، ولايمكن أن يؤمر إبراهيم

بذبح ولده إسحاق وهو صغير مع وجود هذه البشارة[1] .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أي كبر وصار يسعى مع أبيه ، وذلك يكون عادة بعد سن الطفولة ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما « رؤيا الأنبياء في المنام وحي »[2] ولذلك اعتمد إبراهيم عليه السلام أنه مأمور بذبح ولده من الله عز وجل ، وهكذا أخبر ابنه بذلك ليكون تنفيذ الأمر أيسر عليه فيما إذا سلَّم له ابنه، وليحصل ابنه على أجر الطاعة والصبر ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهكذا استسلم إسماعيل لأمر الله تعالى مع صغر سنه وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا ﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى طاعة له ورضا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦ .

بقضائه وقدره ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أي أكبه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه حتى لا تغلبه عاطفة الرحمة به ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نصرف عن عبادنا الذين أحسنوا العمل بطاعة ربهم جل وعلا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، ولقد كان ذلك ابتلاءً عظيما واختبارًا كبيرا لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو الكبش المذكور في هذا الخبر ، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «كبشٌ قد رعى في الجنة أربعين خريفا »[1] .

وقد جاء في هذا الأثر أن الشيطان عرض لإبراهيم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٨ .

عليه السلام ليحول بينه وبين تنفيذ أمر الله تعالى في ذلك فرماه بسبع حصيات في مكان الجمرات في منى ، وجاء في أول الأثر أن جبريل عليه السلام ذهب بإبراهيم عليه السلام ليريه المناسك فعرض له الشيطان في مكان الجمرات فرماه بسبع حصيات ، والظاهر أن هذا بعدما كبر إسماعيل وقام بمساعدة والده في بناء البيت عليهما السلام .

وهكذا الشيطان الرجيم يحاول جاهدًا أن يصد أولياء الله تعالى عن عبادته ومعرفة مشاعره التي أمر بتعظيمها وعبادته حولها ، وهي سلسلة من المعركة القديمة بين الشيطان والإنسان ، التي بدأت بمحاولة الشيطان إغواء أبينا آدم عليه السلام ، وإذا كان الشيطان يقوم بمحاولة إغواء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن طمعه في إغواء أتباعهم من المؤمنين أولى وأحرى ، ولقد سن لنا أبونا إبراهيم عليه السلام هذه السنة الحسنة في محاربة الشيطان ورد كيده .

وما يزال الشيطان الرجيم يوقع بني آدم في مختلف الغوايات والضلالات ، فالكفار يصدهم عن الدخول في الإسلام بتضخيم الشبهات التي يثيرها شياطين الإنس ، وضعفاء الإيمان يزين لهم الشهوات والمعاصي ويُكرِّههم في الطاعات ، وأقوياء الإيمان يحاول أن يَدخل عليهم من أبوابٍ منها الإعجاب بالنفس والاعتداد بالعمل .

وهذه الجمرات الثلاث فرصة للمسلم الحاج وهو يرميها أن يتذكر عداوة الشيطان القديمة الجديدة لبني آدم وأن يكون حاضر القلب مع تعظيم الله تعالى وتحقير الشيطان .

وهذا الهدف ليس المقصود منه تذكُّر عداوة الشيطان في تلك المواقف فقط ، وإنما هي مجرد تذكير، والمطلوب من الحاج أن يستصحب تذكُّر هذه العداوة بعد ذلك، فيكون هذا التذكر عاصمًا له من وساوس الشيطان .

- تعظيم مكة المكرمة والمشاعر المقدسة -

لقد حدد الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام الحرم الشريف حول مكة المكرمة فعظمه وقدَّسه ، وأكَّد تعظيمه أبونا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ثم توارث العرب بعد ذلك هذا التعظيم والتقديس ، ولما بُعث رسول الله ﷺ أكَّد ذلك بما أَوحى الله تعالى إليه، ومن ذلك قوله جل وعلا ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٦ – ٩٧] .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ يعني شُرع لعموم الناس تقديسه والتوجُّه إليه حال الصلاة والطواف به والاعتكاف عنده ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يعني مكة وهو اسم من أسمائها ، وقد بنى الكعبة إبراهيم الخليل عليه السلام ونادى الناس إلى حجه ﴿ مُبَارَكًا ﴾ لساكنيه وقاصديه ،

وقد أخرج الإمام البخاري من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : « قلت : يارسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أول ؟ قال: المسجد الحرام ، قال: قلت: ثم أيٌّ ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم كان بينهما ؟ قال: أربعون سنة ، ثم أينما أدركتْكَ الصلاة بعدُ فصلِّهْ فإن الفضل فيه »[1] .

ثم قال تعالى ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لعموم الناس من عهد إبراهيم عليه السلام حيث أمر بتقديسه والحج إليه، فكان ذلك واجبا على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على دينه، ولكنهم أنكروا قدسية هذا البيت ولم يُنفِّذوا أمر إبراهيم عليه السلام بالحج إليه، وبقي الحج إليه عند العرب، وذلك مما ورثوه من دعوة إسماعيل عليه السلام ، إلى أن بعث الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ فدعا العالمين إلى تقديسه والحج إليه .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٣٦٦ (٦/ ٤٠٧) .

ثم قال تعالى ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أي دلالات ظاهرة على أن هذا البيت من بناء إبراهيم عليه السلام ﴿ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ أي الصخرة التي كان يصعد عليها حين بنى البيت حيث إن أثر قدميه في المقام ظاهرة كما قال المفسرون من التابعين، وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة التي دافع فيها عن النبي ﷺ وأظهر حمايته وتحدى مخالفيه :

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيًا غير ناعل (١)

ثم قال تعالى ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ أي ومن دخل الحرم بحدوده المعروفة كان آمنا على دينه ونفسه وعرضه وماله ، وهذا الأمن مترتب على اعتقاد ساكنيه والوافدين عليه بحرمته وقداسته ، ومما ينتج عن ذلك أن مكة المكرمة وسائر نواحي الحرم ليست بحاجة إلى حماية الأمن بها من

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٣ .

قبل المسؤولين لأن الوازع الديني الذي يفرض تقديس الحرم يجب أن يكون مسيطرًا على النفوس فيمنعها من أن تستجيب لنزواتها المنحرفة .

وقد كان هذا الوازع مسيطرا على العرب في الجاهلية على الرغم من أنهم لم يكونوا على دين صحيح، وإنما توارثوا تقديس هذا الحرم الذي كان من الآثار الباقية لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وعمَّق ذلك في نفوسهم أن هذا البيت لم تصل إليه يد جبار من الجبابرة على الإطلاق، وما حادثة أصحاب الفيل منهم ببعيد ، بينما وصلت أيدي الجبابرة إلى المسجد الثاني الذي كان مقدسا عند الأنبياء عليهم السلام وهو بيت المقدس .

ولقد كان القاتل من العرب يلجأ إلى الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يتعرض له ولايهيجه حتى يخرج من الحرم، وإذا كان هذا شأن صاحب الثأر الذي تُلزمه الأعراف الاجتماعية بأخذ الثأر فمن باب أولى أن يمتنع

عن الاعتداء من كان في نفسه ميل إلى الظلم .

ولقد جاءت هذه الجملة من الآية في سياق تعداد آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته جل وعلا، فهو سبحانه الذي غرس في قلوب العرب جميعا تقديس هذا البيت واحترام الأمن فيه، وإن جَمْعَ العرب على عقيدة واحدة مع اختلاف مشاربهم وتضخُّم العداوة فيما بينهم لايمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى .

هذا وإن أي إخلال بالأمن داخل الحرم في مكة وما حولها يعدُّ تعطيلا لمدلول هذه الآية من قِبَل المسلمين بعدما كان مطبقا من قِبَل المشركين، وهذه منقصة كبيرة ومساءة عظيمة في سمعة المسلمين .

ولقد امتنَّ الله تعالى على المشركين بهذه النعمة، وجعلها آية من الآيات التي يجب أن تدفعهم إلى الإيمان بهذا الدين لو كانوا يعقلون ،حيث يقول عز وجل ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ

أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت :٦٧] كما بين لهم سبحانه أنه هيأ لهم مكانًا صالحًا لقيام حياتهم الهادئة ، حيث توافر فيه أهم عناصر الحياة السعيدة، ألا وهو الأمن ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة : ٩٧] فالبيت الحرام مأوى مكاني يلجأ إليه الخائفون ويأمن فيه المقيمون ، والأشهر الحُرُم مأوى زماني يستروح الناس فيها حياة الأمن ويتفرغون لإصلاح شؤون حياتهم ويستطيعون القيام بالسفر البعيد الذي لم يكونوا قادرين عليه في غير الأشهر الحرم[1] .

(١) والأشهر الحرم أربعة كما جاء في قول رسول الله ﷺ : « السَّنَة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم: ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان » أخرجه الإمام البخاري ، رقم ٤٦٦٢ ، وقوله «ورجب مضر» قال الحافظ ابن حجر: أضافه إليهم لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم- فتح الباري ٨/ ٣٢٥- .

وبهذا المأوى المكاني وذلك المأوى الزماني استطاع أهل مكة أن ينعموا بنعمة الأمن من الخوف ونعمة الحصول على لوازم الحياة المعيشية ، كما قال الله جل وعلا ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[قريش: ١ – ٤] .

وإننا حينما نستعرض تاريخ المسلمين نجد فرقًا شاسعا بين واقعهم ومدلول هذا الآيات ، فالمسلمون في هذا الحرم الشريف لايشعرون بالأمن الكامل على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، حيث أصبح الوضع يحتاج إلى حماية من قوات الأمن كأي بلد آخر ، ونجد بعض المسلمين قد هبط مستواهم في الوازع الديني فيما يتعلق بقدسية الحرم و احترام الأمن فيه عما كان عليه أهل الجاهلية ، بينما كان المفترض أن يتضاعف لدى المسلمين الشعور بقدسية الحرم واحترام الأمن فيه لما

ورثوه عن أسلافهم ، ولما جاء من تعظيم الحرم والأمر باحترام الأمن فيه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فإن مدلول هذه الآية يقتضي أنَّ من دخل منطقة الحرم كان في منطقة أمان لا يحتاج فيها إلى أخذ الحيطة والحذر لنفسه .

وإن من مقاصد الحج تعظيم مكة المكرمة والمشاعر المقدسة ، ولقد عظَّم النبي ﷺ شأن مكة المكرمة ، وبيَّن فضلها على سائر بقاع الأرض بقوله « والله إنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أُخرجت منك ماخرجت» أخرجه الدارمي وابن ماجه [1] .

وهذا يضفي على مكة المكرمة قداسة ترسخ حرمتها ومكانتها .

---

(١) سنن الدارمي ، رقم ٢٥١٠(٢/ ٣١١) ، سنن ابن ماجه ، رقم ٣١٠٨ (١٠٣٧) .

ولقد بيَّن النبي ﷺ حرمتها بالتفصيل يوم فتح مكة ، حيث قال : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعضد شوكه ، ولاينفر صيده ، ولايَلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولايُختلى خلاه» متفق عليه[1] .

فالقتال في مكة المكرمة محرم مطلقا لم يحل لأحد إلا لرسول الله ﷺ ساعة من نهار ، ليطهر مكة من الشرك والأصنام وغير ذلك من مظاهر الجاهلية ، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ قد تفادى بحكمته العالية القتال ، فلم يقع إلا بصورة يسيرة بين الكفار وفرقة من جيش المسلمين .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٣٥٣ (ص٩٨٦) ، صحيح البخاري ، رقم ١٠٤، (١/ ١٩٧) .

obeikandl.com

وقد أكد النبي ﷺ حرمة القتال في مكة المكرمة في هذا الحديث ، بل إنه في حديث آخر حرم مجرد حمل السلاح في مكة حيث يقول :« لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح » أخرجه الإمام مسلم من حديث جابر رضي الله عنه[1] .

وذلك حتى لا يستعمله حامله في ساعة غضب يحضر فيها الشيطان ، وحتى لا يكون في ذلك ترويع للمسلمين الآمنين ، وفي هذا دلالة على أن أي تصرف ينتج عنه ترويع المسلمين فإنه محرم، وإن كان الهدف منه لا يتضمن الاعتداء على الآمنين ، فكيف إذا نتج عنه استعمال السلاح داخل الحرم ؟!

فالنبي ﷺ حرم حمل السلاح حتى للدفاع عن النفس، لأن المفترض شرعا أن يكون الناس آمنين في مكة، حيث إن الكفار ممنوعون من دخولها ، فكون

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٣٥٦ (ص٩٨٩) .

المسلمين لا يأمنون في مكة من اعتداء المسلمين عليهم انتكاسة كبيرة في الوعي الديني .

ولكن حينما لا يتوافر الأمن في مكة المكرمة ويصبح الناس فيها بحاجة إلى حراسة وحماية فإن الضرورة تستدعي جواز حمل السلاح لمن كلفوا بحماية الأمن فيها .

ولقد بين النبي ﷺ في الحديث السابق أن حرمة الحرم لاتقتصر على أمن الناس فيه على أرواحهم ، بل تتجاوز ذلك إلى الحفاظ على ممتلكاتهم ، وما أودع الله تعالى فيه من حيوان أو نبات .

فالذي يسقط منه شيء بدون علمه يبقى في مكانه لايحركه أحد حتى يرجع إليه صاحبه إلا رجلا على استعداد بأن يُعرِّفه ويبحث عن صاحبه من باب فعل المعروف ، حيث أنه لايملكه وإنما يبقى من حق صاحبه .

والصيد فيه آمن لايجد من يُروِّعه ، فضلا عن أن يلحق به الأذى ، حتى نبات الحرم الذي لم يغرسه الإنسان يبقى على حاله لايحركه أحد وإن احتاج إليه إلا

ما استثنى النبي ﷺ وهو شجر الإذخر لاحتياج الناس إليه آنذاك .

وإذا كان الحيوان في مكة المكرمة يبقى في أمن وأمان، والنبات لايعتدي عليه أحد فكيف بحرمة المسلم داخل الحرم ؟! لاشك أنها مضاعفة وانتهاكها جريمة عظيمة .

وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - يعظمون حرمة الحرم الشريف ، حتى إنهم كانوا يتحرجون فيه مما لايتحرجون منه في غيره ، كما رُوي عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما أنه كان إذا قدم إلى مكة يكون له فسطاطان ، أحدهما في الحل والآخر في الحرم ، فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم ، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحل ، صيانة للحرم من قول : بلى والله وكلا والله حين عظَّم الله الذنب فيه .

ذكره الإمام القرطبي في تفسيره ، وذكر نحوه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[1] .

وكذلك كان بعض التابعين يعظمون الحرم ، فيتحرجون من الإقامة فيه ، ومما رُوي في ذلك ماذكره الشيخ أبو حفص عمر بن محمد المَلاَّء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث ، فقال له عبد الله بن عمر ابن عيسى بن عمار : لو أقمت فاستمتعت بهذا البيت واستمتعنا معك ! فقال : ما أظن أحدا منكم أشد حبا لهذا البيت مني ، ولكن والله لكأني على الرضف (أي الحجارة المحماة) من حين أدخله إلى حين أخرج فرقا (أي خوفا) من أن أحدث[2] (أي أن أقع في معصية) .

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٣٤ .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧ .

فهذا تعظيم من هؤلاء الصحابة والتابعين للحرم المكي الشريف حيث احترسوا من الإقامة فيه خشية أن يكتب في صحائفهم مخالفات وهم فيه ، لما يعلمون من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها ، على الرغم من علمهم بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف ، ولكن لشدة خشيتهم فإنهم يؤمنون بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات .

هذا وإن من قداسة الحرم أن الإنسان يؤاخذ فيه على مجرد نية المعصية ، بينما لا يؤاخذ في غيره على المعصية إلا إذا فعلها ، أما في الحرم فإن الإنسان يؤاخذ على إرادة المعصية لقول الله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] .

ومما يدل على أن الإنسان مؤاخذ على إرادة المعصية في الحرم ماجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه أنه قال : لو أن رجلا أراد فيه بإلحاد بظُلم وهو بعدن أبين (يعني في اليمن) لأذاقه الله من العذاب الأليم .

قال الحافظ بن كثير : صحيح على شرط البخاري ، وروي مرفوعا ووقفه أشبه[1] .

وبهذا المعنى قال أهل العلم ، وعلى ذلك تكون الآية مخصصة لعموم قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل « وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه»[2] ، ويحتمل أن يكون المراد بالإرادة في الآية العزمَ المصمَّمَ عليه فلا يكون ذلك تخصيصا ، وذلك كعزم أصحاب الفيل ، وكما جاء في حديث « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يارسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: إنه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦ .

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٠٤ / ١٢٨ .

كان حريصا على قتل صاحبه[1] ولكن المعنى الأول هو الموافق لظاهر الآية .

وقد ورد من صور الإلحاد في الحرم احتكار الطعام فيه ، فقد أخرج أبو داود من حديث يعلى بن أمية أن النبي ﷺ قال : « احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه »[2] .

---

(١) أضواء البيان ٥/ ٦٠ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٢٠٢٠ (٢/ ٥٢٢) .

obeikandl.com

- إقامة ذكر الله عز وجل -

إن حج بيت الله الحرام عبادة عظيمة وله مقاصد جليلة ، فمن أعظم هذه المقاصد إقامة ذكر الله تعالى ، وإن أول أذكار الحج التلبية ، حيث يقول الحاج بعد الإحرام « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » ، فالحاج بهذا يلبي دعاء الله سبحانه له بالحج ، رافعًا شعار التوحيد بدلاً من شعار الشرك الذي كان المشركون يُضمِّنونه تلبيتهم ، حيث يقولون « لبيك لاشريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك» فيستثنون أصنامهم من نفي الشركاء عن الله تعالى .

فالحج موسم للدعوة إلى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة واجتناب جميع أنواع الشرك سواء في مجال العبادة أو في مجال الطاعة .

فالذي يلبي بالاستجابة لله تعالى وإعلان توحيده والبراءة من الشرك به لايليق به أن يعظم غيره سبحانه ، ولا أن يلجأ إلى غيره ولا أن يستغيث بغيره .

فالتلبية توجيه لك أيها الحاج إلى إخلاص التوحيد لله عز وجل ، وإنذار لك من الشرك به، إنه عهد بينك وبين الله تعالى تأخذه على نفسك ، فإذا أنت وفيت به فلم تخضع لغير الله سبحانه ولم تطع غيره في معصيته فإنك تكون قد وفيت بعهدك وأديت حجًّا مقبولاً ، أما إذا خضعت لغير الله عز وجل واتبعت هواك المنحرف واتبعت الجانحين عن الطريق المستقيم فإنك تكون قد خنت العهد ولم تؤد حجًّا مقبولاً .

وإن من أبرز مظاهر الانحراف عن التوحيد الخالص اتباعَ الهوى فيما يخالف شريعة الله تعالى فإذا اتبع الإنسان هواه ولم يخضعه لشريعة الله جل وعلا بل جعله حاكمًا على سلوكه في هذه الحياة فإنه يكون عابدًا له من دون

الله تعالى ، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] ويقول سبحانه ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

فبين سبحانه أن اتباع الهوى يصل إلى حد العبادة ، فيتحول هوى النفس إلى وثن يعبد من دون الله تعالى ، وقد تصل هذه العبادة إلى حدٍّ الشرك الأكبر ، وقد تكون فيما دون ذلك فيكون من قبيل الشرك الأصغر .

وإذا اتبع الناس أهواءهم حصل الفساد الكبير في الأرض ، وبرز منطق القوة والظلم، واختفى منطق الرحمة والعدل وسادت الفوضى بين الناس لانعدام الضوابط العادلة التي يخضع لها الناس، وفي بيان ذلك يقول الله

تعالى ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وإن من أبرز أوقات الذكر والدعاء يوم عرفة ، وأفضل ذلك كلمة التوحيد كما قال رسول الله ﷺ «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لاشريك له »[1] .

وقد كان النبي ﷺ يشغل وقته يوم عرفة بالذكر والدعاء ، فإنه لما صلى الظهر والعصر في نمرة جمعًا وقصرًا دفع إلى عرفة فلم يزل يذكر الله تعالى ويدعوه حتى غربت الشمس ، ولقد قال ﷺ « خذوا عني مناسككم» وفي عمل النبي ﷺ يوم عرفة مع قوله هذا توجيه إلى التفرغ من بعد الظهر إلى غروب الشمس للذكر والدعاء ، وإن بعض الحجاج يضيعون أكثر هذا الوقت بإعداد الطعام وتهيئة المكان والمراكب ، وربما ضيعوه بقيل

(١) الموطأ ١/ ٤٢٢ رقم ٢٤٦ .

وقال ، فيكونوا بهذا قد ضيعوا وقتًا من أغلى الأوقات وفرصة من أثمن الفرص في إجابة الدعاء ، فليخفف الحجاج من الأشغال والتعلقات وليصرفوا أكثر وقتهم في الدعاء والذكر ، أما مايفعله بعض الحجاج من تخصيص دقائق بعد العصر للذكر فإنه تقصير كبير في أداء العبادة التي شرعت في ذلك اليوم ، وحرمان من فرصة ثمينة من مواطن الخير وتنزُّل رحمة الله تبارك وتعالى .

ومن أذكار الحج المهمة ماجاء في قول الله جل وعلا ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [البقرة : ١٩٨] والمشعر الحرام هو مزدلفة كما روى أبو إسحاق السبيعي عن عمرو بن ميمون قال: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال:أين السائل عن المشعر الحرام ؟هذا المشعر

الحرام[1] ،وكذالك ما أخرجه الحافظ عبد الرزاق الصنعاني من خبر سالم بن عبد الله قال : قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وقال : إنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم[2] .

وهذا الأمر بذكر الله عز وجل في مزدلفة توجيه رباني إلى أن العبادة التي تشرع ليلة مزدلفة هي ذكر الله جل وعلا ، فينبغي للحاج أن يكثر من الذكر في تلك الليلة .

وفي هذه الآية توجيه إلى تذكُّر نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم فيتذكر الحاج وهو يذكر الله سبحانه أنه تعالى هو الذي أنقذه من الضلالة وهداه إلى الإسلام الذي هو أعظم نعمة يتحلى بها المسلم .

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٢٨٨) والأزرقي في أخبار مكة (٢/ ١٩١) .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٠ .

هذا وأن ذكر الله تعالى من أهم مقاصد الحج ، ومما جاء في ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ [البقرة :٢٠٣] وهي أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر كما أخرج الإمام مسلم من حديث نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله »[(١)] ،وقوله « أيام أكل وشرب» يعني أنه لايشرع صيامهن ، كما أخرج الحافظ ابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة رضي الله عنه يطوف في منى ويقول : « لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »[(٢)] .

وهذا الذكر الذي يشرع في هذه الأيام نوعان : ذكر مقيد بوقت معين وهو الذي يكون عقب الصلوات

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١١٤١ .

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٣٠٤ ، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٣ .

المكتوبة ، وذكر مطلق وهو الذي يكون في سائر الأحوال، ويبدأ وقت الذكر على القول المشهور من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته من أيام التشريق ، وجاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره « إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل» ذكر ذلك الحافظ ابن كثير [1] .

ومما جاء في ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة :٢٠٠] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٣ ، والحديث المذكور أخرجه أبو داود في سننه، رقم ١٨٨٨، والترمذي في جامعه ، رقم ٩٠٢، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ٢٧٩ .

فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديايا ، ليس لهم غير ذكر فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا ﴾ [1] ، فقد ذكر الله سبحانه الآباء في هذه الآية على سبيل التمثيل بما كان العرب يفعلونه في جاهليتهم من ذكر آبائهم في أسواقهم التجارية والأدبية، فالمعنى: إذا كان أهل الجاهلية يذكرون آباءهم بالفخر والاعتزاز فالله تعالى أولى بأن يذكره المسلمون ، ودينه أولى بالإشادة والاعتزاز مما ورثه الجاهليون عن الآباء والأجداد .

وقوله تعالى ﴿ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا ﴾ « أو » هنا ليست للشك وإنما هي لتحقيق المماثلة كقوله تعالى ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ ﴾ [البقرة :٧٤] وكقوله

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢ وقوله " الديايا " أي الديات جمع دية .

﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[النساء: ٧٧] وكقوله﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] وكقوله ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم :٩] ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وقال : فليست ههنا للشك قطعا وإنما هي لتحقيق المخبر عنه ، كذلك أو أزيد منه[1] .

وبعد أن وجه الله تعالى المؤمنين إلى الإكثار من ذكره أرشدهم إلى دعائه ، حيث إن من أسباب إجابة الدعاء أن يلهج الداعي بذكر الله تعالى ، وذلك بعد أن عرَّض بذم الذين لايسألون إلا أمور دنياهم فقال ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة :٢٠٠] فالذي يكون دعاؤه خالصا للدنيا ولايفكر بطلب نعيم الآخرة والنجاة من عذابها فليس له في سعادة الآخرة من حظ ولانصيب ، أما

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢ .

السعيد حقا فهو الذي يجمع بين طلب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة والوقاية من عذاب النار ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة ٢٠١] فحسنة الدنيا كل ما أباحه الله تعالى من متاع الدنيا وخيراتها ، وأبلغ من ذلك السعادة الروحية التي يشعر بها المؤمن في هدايته إلى الصراط المستقيم وثباته عليه وأمله الكبير في مستقبله الأخروي ، وحسنة الآخرة في الأمن يوم الفزع الأكبر وتيسير الحساب والظفر برضوان الله جل وعلا والسعادة في الجنة ، أما سؤال الوقاية من النار فإنه يكون بتيسير أسبابه في الدنيا من فعل الطاعات واجتناب المحرمات والشبهات .

ولكون هذا الدعاء جامعا لخيري الدنيا والآخرة فإن النبي ﷺ كان يكثر من الدعاء به ، كما أخرج الإمام أحمد من حديث عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة

أنسا : أي دعـوة كـان أكثـر مايـدعوها الـنبي ﷺ ؟ قـال : يقول : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عـذاب النـار»[1] ، وأخـرج ابـن أبـي حـاتم مـن حـديث عبدالسلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقـال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم فقال : « اللـهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عـذاب النـار » وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبـا حمـزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم ، فقال : أتريـدون أن أُشَقِّق لكـم الأمـور ؟ إذا آتـاكم الله في الـدنيا حسـنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله[2] .

وينبغي أن يُعلم بأنه لابد أن يصاحب الذكر تعظـيم الله عـز وجـل وحضـور القلـب معـه حـال الـذكر ، فالمشركون يذكرون آباءهم ويفتخـرون بهـم بقلـوبهم مـع

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٠٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٣ .

ألسنتهم وكامل حواسهم ، فلا يليق بالمسلمين أن يـذكروا الله عز وجل بألسنتهم فقط وقلـوبهم غافلـة عـن إجلالـه وتعظيمه .

وفي قول الله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة :٢٠٠] يأمرنا جل وعلا بأن نكثر من محامده ، وأن نشكره على نعمه العظيمة في أثناء الحج وبعد انقضائه على سبيل الاعتزاز به والتهوين من شأن كل من يُعبد من دونه ، وإزالة ما وقر في بعض النفوس من تعظيم غيره .